تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

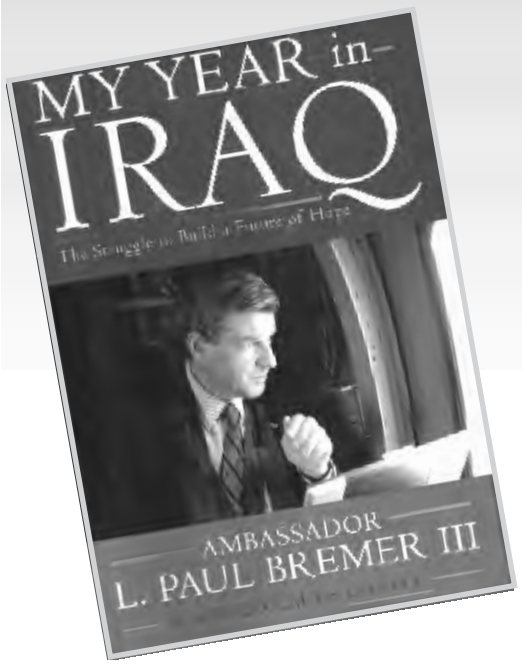

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة السابعة عشرة)

حطت الطائرة الرئاسية رقم ١ في قاعدة (العُدَيد) الجوية القطرية ، في مساء رطب من يوم الأربعاء ، ٤ حزيران. كنت قد اتجهتُ بالسيارة إلى مطار جوي عسكري ضخم ، برفقة السفير الأمريكي مورين كوين. القائد العام للقيادة المركزية ، تومي فرانكس ، الذي كان على وشك التقاعد ، ونائبه الجنرال جون أبي زيد ، الذي كان يستعدّ لتولي القيادة ، انضمّا إلينا ، برفقة وفد من كبار المسؤولين القطريين ، الذين كانوا وقفوا على نسق ، أسفل مدرّج الطائرة ، لاستقبالنا. هنا ، في الخليج الأدنى ، كان الجو حاراً مثل بغداد ، ورطباً مثل حمّام بخاري.

في طريق العودة من الدوحة، العاصمة، لا يمكنك أن تتجاهل الوفرة الجلية التي تتمتع بها الإمارة الغنية بالنفط. قصور بيضاء رخامية تتوزع كشواهد القبور في الصحراء الضاربة للسمرة. كانت كل سيارة أخرى على الطريق السريعة، تبدو وكأنها من طراز (BMW)أو روز رايس. يوجد ١٦٠ ألفاً من القطريين الأصليين، وحوالي ٧٠٠ ألف من الوافدين، يعيشون في البلاد: الأسيويون الجنوبيون الذين يقومون بالأعمال الوضيعة، الفلسطينيون والمصريون الذين يقومون بأعمال التجارة، والأوروبيون الذين يشرفون على حقول النفط والقطاع المصرفي، ويبقون خطوطَ الطيران في الخدمة. ولأنّ احتياطي الغاز ضخمٌ جداً، لا يضطر القطريون إلى العمل. هذا النسق يتكرّر في معظم أرجاء الخليج. لقد وجدتُ عراقيين، من جميع الخلفيات الإثنية والعشائرية، أكثر خشونةً، وصبراً، وتحمّلاً. مع ذلك فإن القطريين الذين قابلتهم في وقت سابق من ذلك اليوم، أبدوا موقفاً فيه بعض الكياسة، تجاه الأغلبية الشيعية، الذين كانوا يعتبرونهم، بوضوح، فلاّحين ضالّين، منحرفين. حين لفتُ النظرَ إلى أنه توجد طبقة نشطة من المحترفين الشيعة في العراق، ظهرت ملامح الريبة على وجوه بعض المضيفين، في عباءاتهم الصيفية.

ذات يوم، قلتُ في نفسي، سوف يتمكّن عراق حرّ، بسكانه المثقفين، المجتهدين، بتغيير هذه المنطقة.

هبط الرئيس بوش، العائد من قمة عربية-إسرائيلية، عقدت في العقبة على البحر الأحمر، مدرجَ الطائرة. بدا مفعماً بالحيوية، ويتحلّى بمعنويات عالية، وهو يشقّ طريقه بين صفوف مستقبليه.

"بريمر،" قال، ممسكاً بي من كلتا كتفي. "كيف تواجه الوضع؟ عد إلى الفندق، معنا، ودخّن بعض السيجار."

لحق كولين باول وكوندي رايس بالرئيس إلى سيارة الكاديلاك المصفحة التي تقلّه، وأنا عدتُ إلى سيارة السفارة في مؤخّرة الموكب. كنتُ قد صعدتُ للتو إلى الداخل، حين قدم أحدُ مساعدي الرئيس بوش مهرولاً باتجاهي. "سيدي، يريدك الرئيس أن تستقل السيارة معه."

كان عليّ أن أعود أدراجي، مستعرضاً سيارات الموكب المتوقفة، تحت الحرارة اللاهبة.

"هيا، يا جري،" قال الرئيس مبتسماً. "عليك أن تطلعنا على آخر المستجدّات في العراق."

جلستُ على المقعد قبالة الرئيس. على مقعد آخر، قربي، جلست كوندي رايس، في حين جلس وزير الخارجية، قرب الرئيس في المقعد الخلفي.

تبادلتُ مع الرئيس محادثة سريعة، شاملة، فيما كانت سيارات الليموزين ودراجات الموكب، تنهبُ الطريقَ السريعةَ، باتجاه فندق (ريتز-كارلتون)، على كورنيش الدوحة المبهرج.

"دعنا نبدأ بالأمن،" قلت. "إنّ الحالة في بغداد تتحسّن. لكن لا تزال لدينا مشاكل. يأتي العنف من مصادر ثلاثة: لصوص، وبعثيون يائسون- بمن فيهم فدائيو صدام- وعناصر المخابرات. وربما يحاول الإيرانيون أن يلعبوا دوراً ما، أيضاً."

"وما موقف العراقيين من ذلك؟" سأل الرئيس.

"بناءً على محادثات أجريتها مع زعماء العشائر الشيعة في الجنوب، هم لا يريدون لهؤلاء القادمين من إيران العبث بشؤون العراق."

"وماذا عن الأمن في أماكن أخرى من البلاد؟"

"ثمة الكثير مما يجب فعله في المنطقة شمال وغرب بغداد، معقل العرب السنّة. يوجد العديد من الخاسرين الحاقدين. رأيت بعض التقارير عن متطرّفين وهابيين سعوديين يأتون إلى المنطقة." بدا هذا وكأنه يفاجئ الآخرين.

أضفتُ أنه قبل الغزو، كانت فرقتان للحرس الجمهوري- هما نبوخذ نصر وعدنان- قد تحصّنتا في شمال بغداد لصدّ الهجوم المتوقع لكتيبة المشاة الرابعة في الجيش الأمريكي، المتحركة جنوباً من تركيا، وهو الهجوم الذي لم يحدث أبداً، لأن الأتراك امتنعوا عن إعطاء التحالف إذناً بنقل قواته عبر البلاد. كان قد تمّ قصف آليات العدو، لكن القوات العراقية انتشرت وتوزعت داخل المدن والقرى السنّية، مثل تكريت وسامراء والفلّوجة- وبغداد. "علينا القيام بما هو أكثر لمطاردتهم والقبض عليهم."

"كيف هي الحالة العامة؟"

"أنا متفائل لسببين، سيدي الرئيس،" أجبتُ. "أولاً، يمتلك العراق موارد ممتازة، ووفرة من المياه، وأراضي خصبة، بالإضافة إلى احتياطي كبير من النفط. كما أنّ العراقيين أناس موهوبون ومجتهدون."

وصفتُ زيارتي إلى مصفاة (الدورة) للنفط.

"من جهة أخرى،" أضفتُ، "من الصعب علينا أن نفهم عمق التمزّق النفسي الذي يعاني منه الشعب العراقي. كان سقوط النظام دراماتيكياً بشكل لم نشهد له مثيلاً منذ عقود. لقد مكث صدام في مركز السلطة لمدة تزيد على ثلاثة أضعاف المدة التي قضاها هتلر. لا يملك العراقيون تجربة مع الفكر الحرّ. هم يفهمون بشكل غامض مفهوم الحرية، وبالتالي يريدوننا أن نرشدهم لما يفعلونه."

"هل بإمكانهم أن يحكموا بلداً حراً؟" سأل. "بعض الزعماء السنة في المنطقة يشككون بذلك. هم يقولون: الشيعة كلهم كاذبون. ما انطباعك أنت؟"

"حسنٌ. أنا لا أوافق. قابلتُ العديد من القادة الشيعة، المعتدلين والشرفاء، وأنا واثق أنّ بإمكاننا التعامل معهم."

"ماذا عن الاقتصاد؟"

"مشكلتنا الأكثر إلحاحاً هي البطالة. نعتقد أنها تصل إلى خمسين بالمئة، ولكن من يعلم حقاً؟ أيضاً، يملك العراق شعباً فتياً، ونصفه لا يتجاوز التاسعة عشرة من العمر. هذا مزيج انفجاري."

شرحتُ أنّ العراق يعاني من اقتصاد ستاليني عاجز. نحتاج لأنّ نحرّض على النشاط المنتج لتوفير الوظائف. أخبرتُ الرئيس أنني أنوي الإعلان عن بعض برامج العمل الطارئة لاحقاً هذا الأسبوع. وفي المدى البعيد، علينا أن نساعد العراقيين على تحويل الصناعات العسكرية إلى مؤسسات مدنية منتجة. ويمثّل الفساد بالتأكيد خطورةً كبرى.

"قرأتُ تقريراً بأنّ حوالي ١٥٠ ألفاً من المتقاعدين لم يقبضوا رواتبهم،" قال.

"الرقم، في الحقيقة، أكبر من ذلك، سيدي الرئيس. لكننا نعمل في سبيل توفير رواتبهم، أيضاً."

"ماذا عن تأسيس جيش وشرطة جديدين في العراق؟"

"هذا على رأس أولوياتنا. غير أن الجنود السابقين غير مؤهلين للخدمة في سلك الشرطة." أضفتُ أن المفوض السابق للشرطة في مدينة نيويورك، برنارد كيريك، التحق بنا لتوه كمستشار للشرطة العراقية. ولديه خطة لإنشاء قوة شرطة محترفة. "سوف نبدأ التدريبات الأولية في غضون ثلاثة أسابيع." ثمّ أضفتُ بأننا بصدد تجنيد الكتيبة الأولى من الجيش الجديد.

أخبرتُ الرئيس بأن إنتاج النفط بدأ يعود شيئاً فشيئاً. "إننا ننتجُ ٧٠٠ ألف برميل في اليوم. سيكون بمقدورنا البدء بالتصدير الأسبوع القادم، عبر أنبوب النفط التركي. ناقلات النفط يمكن أن تتوجه إلى الموانئ قريباً."

توجه الموكب إلى الكراج السفلي لفندق ريتز-كارلتون، وسط سلال القمامة ومكبات النفايات.

"ابق معي،" قال الرئيس مازحاً. "سوف ترى الجانب السفلي لأفضل فنادق العالم."

في الصباح التالي، وعلى الفطور في جناح الرئيس، قدم الجنرال فرانكس موجزاً عن المشاكل الأمنية في شمال وغرب بغداد. ثم انضمّ إلينا باول ورايس ورئيس مستشاري البيت الأبيض، آندي كارد، وجلسنا حول طاولة مستطيلة.

"السيد الرئيس،" قال فرانكس، "مثلما أكدتُ لوزير الدفاع رامسفيلد، علينا أن نُبقي مستوى القوات ثابتاً بشكل يلبي حاجياتنا."

مستخدماً خريطة للعراق، أشار فرانكس إلى المناطق في الجنوب حيث تتمركز قوة عسكرية بحجم كتيبة، تحت قيادة بولندية، وتضم قوات من جنسيات أخرى.

"أنا لستُ خبيراً عسكرياً، سيدي الرئيس،" قلتُ. "ولكن علينا أن نكون حذرين في تقدير قيمة القوات غير الأمريكية. يجب أن يكون هدفنا تجنّب أي تدهور في مقدراتنا القتالية العامة." يمكن أن تبدو قوات حلف وارسو السابق جيدةً على الورق، لكن تدريبها أو تجهيزاتها ليست بنفس مستوى القوات البريطانية أو الأمريكية.

"من المهم، بالدرجة الأولى، أن نحافظ على قوة كافية للتعامل مع أي خصم في العراق الجديد." كنتُ أفكر بالبعثيين غير التائبين، والوهابيين السعوديين الذين أقسموا على الجهاد، والإيرانيين العابثين. "مازال ينتظرنا قتال شرس أمامنا،" قلتُ، "وخاصة في المنطقة غرب وشمال بغداد. فقدنا جندياً من الكتيبة المحمولة جواً، البارحة، أثناء دورية في مدينة اسمها الفلّوجة."

لزم الوزير باول صمتاً متأملاً خلال الشطر الأعظم من النقاش. كان قد عرف أحدنا الآخر، وأبادله الاحترام منذ سنين- منذ أن كان قائد فيلق للجيش أثناء الحرب الباردة في أوروبا، وكنتُ سفير أمريكا في هولندا. الآن، بادر باول بالحديث.

"بعض الافتراضات، يا جري. دعنا نفترض الوصول إلى أفضل وضع خلال الأشهر القليلة القادمة، وإقامة حكومة عراقية ممثلة ، تتمتّع بأغلبية شيعية. هل يعني هذا أننا سنواجه قانون الشريعة، كما هو الحال في نيجيريا وباكستان؟" كان يشير إلى التشريع الإسلامي المستند إلى القرآن.

"السيد الوزير،" قلتُ. "حسبما أفهم، إنّ الشريعة يمكن أن تتعايش جنباً إلى جنب مع القانون الغربي العلماني، كما هو الحال هنا في قطر، طالما أنه محصورٌ بقضايا عائلية."

"ما هو السيناريو الأفضل الذي تتخيّله في السنة القادمة؟" قال باول بإصرار.

"خلال عام" قلتُ "يمكن أن نكون قد أنجزنا الدستور، والانتخابات الديموقراطية، بشكل أو بآخر. ولكن سيكون من الصعب جداً أن ننسحب خلال تلك الفترة من الزمن."

كانت كوندي رايس تسجّل الملاحظات. "هل يمكن لنظام الانتخابات العراقي أن يتضمّن التصويت لانتخابات أولية يتوجّب على الأحزاب أن تبلغها من أجل أن تكون ممثّلة في البرلمان، كما هو الحال في بعض البلدان الأوروبية مثل ألمانيا؟" كانت رايس تفكر بالسبل التي تجنّب العراقَ في المستقبل برلماناً تمزّقه تيارات سياسية متنازعة.

"بالتأكيد أتمنى ذلك،" قلت. "هذه طريقة أخرى في تحسين فرص الوصول إلى مناخ سياسي مستقر."

"امشِ بخطوات هادئة، يا جري،" حذّرني الرئيس قبل أن يغادر مع الجنرال فرانكس، لتحية الجنود في معسكر (السيلية) المجاور.

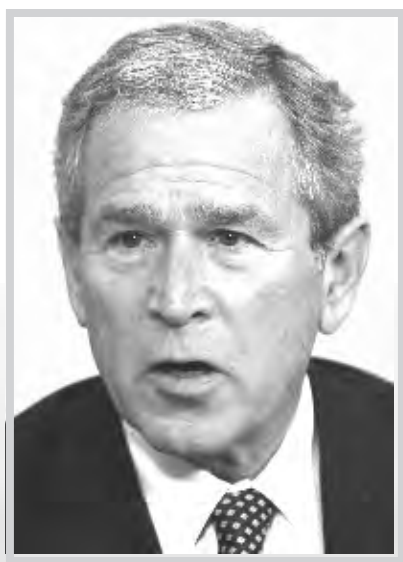

يتبع